حجازي

فارس الكاريكاتير

رسام الكاريكاتير الفنان أحمد حجازى شغل الناس كثيراً برسوماته البديعة، حتى عندما انقطع عن الرسم، انشغل به الناس أكثر وبحثوا عن سبل لتكريمه وإعادته إلى ريشته التى افتقدوها، لكنه قد قرر أن يدخل قوقعته الاكتئابية، وأغلق باب شقته على نفسه، إلى أن قام منذ سنوات قليلة بترك القاهرة عائدا إلى قريته.

لم يتوقع حجازى فى يوم من الأيام أن يصير رساماً كبيراً أو كاتباً ظناً منه فى ذاك الوقت أن الرسم شئ عادى وأن الناس ترسم مثلماً يرسم فى البيت والمدرسة، فيشخبط على الورق بحرية وهو يقبض بأنامله الرقيقة على قلمه الرصاص ليصور كل وقائع الحياة الاجتماعية من حوله، أو يشخبط على الحيطان بالطباشير ويرسم على الإسفلت ببراءة وتلقائية.

لم يكن يتوقع مطلقاً أن كائناته الطفولية هذه ستصنع منه ذات يوم نجماً فى عالم الفن على الرغم مما كان يلقى من اهتمام مدرس الرسم برسومه فى المدرسة التى كانت تزين جدران الفصل فى مدرسته "الأحمدية الثانوية" فى طنطا،

obeikandl.com

وكثيراً ما أصطحب مدرس الرسم الناظر وبعض المدرسين بالمدرسة لمشاهدة رسوم "حجازي" بفرحة وانبهار وتقدير لفن هذا الصبى الموهوب، حيث كانت رسومه فى المدرسة تأخذ الطابع الأكاديمي، وحينما يرجع البيت كان يرسم بحرية وطلاقة وبشكل مختلف حيث تنساب خطوطه على الورق دون رقيب أو حسيب رغبة منه فى أن يرسم ما يريد.

كل هذا لم يتوقع أنه يفعل شيئا ذا قيمة فكان يرسم من دون توقف ومن دون أن يعى أهمية ما يرسمه، ولم يعرف أنه نوع من الفن إلا عندما طالع مجلة "روز اليوسف" ورأى رسوم عبد السميع التى كانت تتصدر غلافها بالأحمر والأسود، وتملأ بعض الصفحات الداخلية تهاجم الملك فاروق فى أواخر حكمه، وتتصدى للاستعمار البريطانى وتحارب الرجعية، وقد أحدثت تلك الرسوم بداخله نوعاً من الفوران والاتزان الذى جعله للمرة الأولى يشعر بقيمة ما أنجزه من رسوم فى هذه السن المبكرة.

بيرم وعبد السميع

كان حجازى منذ طفولته مولعاً بالقراءة باعتبارها متعته الأولي، فكان يقرأ كل ما يقع تحت يديه فى كشك "عم إبراهيم" فى شارع البحر فى طنطا، وكان يشترى منه الكتاب بقرش، أو يستعيره ويسرع فى قراءته وتبديله بكتاب آخر، فقرأ كتباً لم يكن يدرك معناها كتباً متنوعة

من الشرق والغرب فى التراث أو فى الأدب المعاصر، أو التاريخ أو الفلسفة، وشتى ألوان المعرفة.

لم يكن يعرف معنى ما يقرأ فى ذلك الوقت، ولكن حروف المطبعة تركت فى داخله شيئا مختلفاً ومؤثراً، وعندما عاود قراءة هذه الكتب مرة أخرى بعد مجيئه إلى القاهرة، أدرك قيمة ما قرأه فى طفولته وصباه، وفى أثناء تردده على مكتبة البلدية فى طنطا قرأ ديوان بيرم التونسى ووجد فى أشعاره ما يشبه الكاريكاتير من تلك المبالغات الموحية والساخرة كما فى قصيدته "العامل المصري".

وشكلت أشعار بيرم التونسى ورسوم عبد السميع فى "روز اليوسف" معنى الكاريكاتير عند "حجازي" لأنهما توافقاً مع ما كان يقوم به من رسوم.

تنابلة الصبيان

عمل حجازى رساماً للكاريكاتير فى مجلة "روز اليوسف" منذ عام ١٩٥٣ ، وكان شديد الاعتزاز بهذا العمل ولم يتصور ذات يوم نفسه يعمل عملاً آخر، وقال بتواضع الفنان إنه تعلم من كل من سبقوه وكل من جاءوا بعده وأكد على أنه تعلم الكثير من الشاعر والفنان صلاح جاهين الذى أنشا التحول الأساسى فى الكاريكاتير المصرى مغيراً أسلوب الخطوط بحيث تكون أكثر تعبيراً وعمقاً ومباشرة وقد أخلص حجازى لفنه وأعطاه كل ما يملك من وقت وجهد وفكر وبخطوطه المميزة

وأسلوبه الخاص صار من أكبر رسامى مصر والعالم العربى كله، لم يساوم أحداً على فنه، ولم يتوسل إلى صاحب سلطة أو جاه، بل عاش ومازال شريفاً عفيفاً وفارساً نبيلاً.

وعندما ترأس الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين مجلس إدارة "دار الهلال" طلب من حجازى العمل معه فى مجلة "سمير"، وكانت مجلات الأطفال وقتئذ تعتمد بشكل أساسى على الرسوم الأجنبية، وكل ما كانوا يفعلونه هو ترجمة النص من لغته الأصلية للغة العربية، وتغيير أسماء أبطال الحكايات مثلا: من جاك إلى خليل، ومن ميرى إلى زينب، الخ، فأجواء الرسوم كانت أجنبية والنصوص عربية، وهذا هو التناقض الذى كانت تقع فيه المجلات لعدم وجود الخبرات الكافية فى هذا المجال وكانت فكرة حجازى من البداية أن يكون المواطن على وعى ودراية بما يحدث حوله من المجتمع، والطفل مواطن صغير يتصور أنه يعرف شيئا بما فى ذلك السياسة، وذات مرة حينما كان حجازى طالباً فى الثانوية العامة، سأل أستاذه بتلقائية قائلا: هل يتعلم الإنجليز العربية مثلماً نتعلم نحن الإنجليزية؟ فكان رد أستاذه باستياء شديد: "حيتعلموا العربية ليه"؟ وقتها شعر حجازى بالغيظ، وظل هذا الرد يراوده، وكلما تذكره يشعر بالحنق والمهانة، ولهذا عمل حجازى أول مسلسل مصور للأطفال بفكر مصرى ليس له علاقة بالنقل من الخواجات بعنوان "تنابلة الصبيان" كان يرسمه بمنطق "الهزار" كنوع

من المداعبة مع الطفل المصري، وتعامل معه من خلاله كصديق ومواطن صغير له وجهة نظر.

دور فاعل

ولأن حجازى فنان مرهف الحس، وصاحب رسالة سامية يؤمن بأن للفن دوراً فاعلاً فى المجتمع وعندما يرى أن هذا الدور غائب أو مغيّب وأن عالمنا العربى يمر بأسوأ حالاته على جميع الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجميع يأخذ موقف المتفرج على ما يحدث فى فلسطين والعراق وجنوب لبنان وأفغانستان ومحاربة الإسلام فى كل بقعة من بقاع الأرض ومحاصرته فى كل مكان، لم يتحمل هذا الفنان المرهف كل هذه الانهيارات وكل هذه الهزايم المتلاحقة فانسحب فى هدوء شديد منذ سنوات قليلة وانزوى فى منزله فى المنيل مكتئباً ومحبطاً ومكتفياً بأحزانه التى تنوء عن حملها الجبال، لم يرفع سماعة هاتفه ليرد على سائل أو صديق إلا نادراً وانقطع عن الرسم فلم يرسل رسومه إلى مجلة أو جريدة إلا بين الحين والآخر يفاجئنا ببعض رسومه هنا أو هناك، وقد فاجأ حجازى الحياة الثقافية عام ٢٠٠٢ بانسحابه التام وتركه المفاجئ لشقته فى القاهرة متنازلا لصاحب البيت عنها ليرجع إلى مسقط رأسه طنطا صفر اليدين إلا من تاريخه المشرف فى الوقت الذى تساوى فيه هذه الشقة الكثير، وحينما سئل عن هذا أجاب قائلا: "إننى لم أدفع

شـيئا لصاحـب البيـت، فلمـاذا أخـذ منـه عندمـا أتركهـا".

لا يفعـل هـذا سوى فنـان فـى حجـم ومنزلـة حجـازى خاصة فـى هـذا الزمـن الـذى اختلـت فيـه الموازيـن وضاعـت فيـه القيم.

وانسـحاب حجـازى مـن الحيـاة الثقافيـة، تـاركا خلفـه الأضـواء والشـهرة مكتئبـا حزينـا يذكرنـا بانسـحاب الناقـد الراحـل أنـور المعـداوي، حينمـا تنكـرت لـه الحيـاة الثقافيـة وظلمتـه ظلمـاً شـديداً، وكان وقتهـا يمـلأ الدنيـا ضجيجـاً، وعمـره وقتئـذ لا يتجـاوز الثلاثـين حيـث كان أكـبر ناقـد أدبـى علـى السـاحة العربيـة، فـى زمـن العمالقـة د. طـه حسـين، وعبـاس محمـود العقـاد، وسـيد قطـب لانشـغال كل مـن طـه حسين والعقـاد بالحيـاة السياسـية والنيابيـة وسـفر سـيد قطـب إلى أمريـكا وانشـغاله بقضيـة الإصـلاح الديـني.

رجـع المعـداوى إلى قريتـه "معديـة مهـدي" وانقطعـت صلته بالحيـاة الثقافيـة وظـل مكتئبـا حزينـا فـترة طويلـة إلى أن مـات، وأثـر حجـازى أن يرجـع إلى بلدتـه منقطعـاً عـن الفـن والحيـاة الثقافيـة ليعيـش مـا تبقـى مـن عمـره بعيـدا عـن الأضـواء، كنـا نتمنـى أن يظـل حجـازى يقـاوم بريشـته، ويعـبر عـن آرائـه تجـاه مـا يحـدث مـن مسـخ للهويـة ويكمـل رسـالته السـامية مدافعـاً بقـوة عـن هـذا الوطـن الـذى تحـول إلى جـزر منعزلـة، ولكنـه لم يتحمـل وتـرك كل شـئ وفضـل أن يعيـش بعيـداً فـى هـدوء.

★ نشر فى جريدة القاهرة فى ٣ مارس ٢٠٠٩